

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله ﷺ يعقوب عليه السلام ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه وهو الأشبه وقد أشكل قوله : { آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر } على كثير من المفسرين فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ومعنى الكلام { وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين } وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما ثم لما وصلوا باب البلد قال : { ادخلوا مصر إن شاء الله آمين } وفي هذا نظر أيضا لأن الإيواء إنما يكون في المنزل كقوله { آوى إليه أخاه } وفي الحديث [من آوى محدثا] وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه : ادخلوا مصر وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدية ببركة قدوم يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة حين قال : [اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف] ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أبا سفيان في ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام .

وقوله : { آوى إليه أبويه } قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديما وقال محمد بن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمّه يعيشان قال ابن جرير : ولم يقم دليل على موت أمه وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق وقوله : { ورفع أبويه على العرش } قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعني السرير أي أجلسهما معه على سريريه { وخرّوا له سجدا } أي سجد له أبواه وإخوته الباقيون وكانوا أحد عشر رجلا { وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل } أي التي كان قصها على أبيه من قبل { إنني رأيت أحد عشر كوكبا } الآية وقد كان هذا سائغا في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا في هذه الملة وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى هذا مضمون قول قتادة وغيره .

وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله صلى

اﻟﻌﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻓﻘﺎﻝ [ﻣﺎ ﻫﺬﺍ ﻳﺎ ﻣﻌﺎﺩ ؟] ﻓﻘﺎﻝ ﺇﻧﻲ ﺭﺃﻳﺘﻬﻢ ﻳﺴﺠﺪﻭﻥ ﻟﺄﺳﺎﻗﻔﺘﻬﻢ ﻭﺃﻧﺖ ﺃﺣﻖ ﺃﻥ ﻳﺴﺠﺪ ﻟﻚ ﻳﺎ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻠﻪ ﻓﻘﺎﻝ : [ﻟﻮ ﻛﻨﺖ ﺃﻣﺮﺍ ﺃﺣﺪﺍ ﺃﻥ ﻳﺴﺠﺪ ﻟﺄﺣﺪ ﻟﺄﻣﺮﺓ ﺍﻟﻤﺮﺃﺓ ﺃﻥ ﺗﺴﺠﺪ ﻟﺰﻭﺟﻬﺎ ﻟﻌﻈﻢ ﺣﻘﻪ ﻋﻠﻴﻬﺎ] ﻭﻓﻲ ﺣﺪﻳﺚ ﺁﺧﺮ : ﺃﻥ ﺳﻠﻤﺎﻥ ﻟﻘﻲ ﺍﻟﻨﺒﻲ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻓﻲ ﺑﻌﻀﻲ ﺗﺮﻕ ﺍﻟﻤﺪﻳﻨﺔ ﻭﻛﺎﻥ ﺳﻠﻤﺎﻥ ﺣﺪﻳﺚ ﻋﻬﺪ ﺑﺎﻟﺒﻼﻡ ﻓﺴﺠﺪ ﻟﻠﻨﺒﻲ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻓﻘﺎﻝ : [ﻻ ﺗﺴﺠﺪ ﻟﻲ ﻳﺎ ﺳﻠﻤﺎﻥ ﻭﺍﺳﺠﺪ ﻟﻠﻪ ﺍﻟﺬﻯ ﻻ ﻳﻤﻮﺕ] ﻭﺍﻟﻐﺮﺽ ﺃﻥ ﻫﺬﺍ ﻛﺎﻥ ﺟﺎﺋﺰﺍ ﻓﻲ ﺷﺮﻳﻌﺘﻬﻢ ﻭﻟﻬﺬﺍ ﺧﺮﻭﺍ ﻟﻪ ﺳﺠﺪﺍ ﻓﻌﻨﺪﻫﺎ ﻗﺎﻝ ﻳﻮﺳﻒ : { ﻳﺎ ﺃﺑﺖ ﻫﺬﺍ ﺗﺄﻭﻳﻞ ﺭﻭﺃﻳﺎﻱ ﻣﻦ ﻗﺒﻞ ﻗﺪ ﺟﻌﻠﻬﺎ ﺭﺑﻲ ﺣﻘﺎ } ﺃﻱ ﻫﺬﺍ ﻣﺎ ﺃﻝ ﺇﻟﻴﻪ ﺍﻟﺄﻣﺮ ﻓﺈﻥ ﺗﺄﻭﻳﻞ ﻳﻄﻠﻖ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﻳﺼﻴﺮ ﺇﻟﻴﻪ ﺍﻟﺄﻣﺮ ﻛﻤﺎ ﻗﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻫﻞ ﻳﻨﻈﺮﻭﻥ ﺇﻻ ﺗﺄﻭﻳﻠﻪ ﻳﻮﻡ ﻳﺄﺗﻲ ﺗﺄﻭﻳﻠﻪ } ﺃﻱ ﻳﻮﻡ ﺍﻟﻘﻴﺎﻣﺔ ﻳﺄﺗﻴﺘﻬﻢ ﻣﺎ ﻭﻋﺪﻭﺍ ﺑﻪ ﻣﻦ ﺧﻴﺮ ﻭﺷﺮ .

ﻭﻗﻮﻟﻪ : { ﻗﺪ ﺟﻌﻠﻬﺎ ﺭﺑﻲ ﺣﻘﺎ } ﺃﻱ ﺻﺤﻴﺤﺔ ﺻﺪﻗﺎ ﻳﺬﻛﺮ ﻧﻌﻢ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ { ﻭﻗﺪ ﺃﺣﺴﻦ ﺑﻲ ﺇﺫ ﺃﺧﺮﺟﻨﻲ ﻣﻦ ﺍﻟﺴﺠﻦ ﻭﺟﺂ ﺑﻜﻢ ﻣﻦ ﺍﻟﺒﺪﻭ } ﺃﻱ ﺍﻟﺒﺎﺩﻳﺔ ﻗﺎﻝ ﺍﺑﻦ ﺟﺮﻳﺞ ﻭﻏﻴﺮﻩ : ﻛﺎﻧﻮﺍ ﺃﻫﻞ ﺑﺎﺩﻳﺔ ﻭﻣﺎﺷﻴﺔ ﻭﻗﺎﻝ : ﻛﺎﻧﻮﺍ ﻳﺴﻜﻨﻮﻥ ﺑﺎﻟﻌﺮﺑﺎﺕ ﻣﻦ ﺃﺭﺽ ﻓﻠﺴﻄﻴﻦ ﻣﻦ ﻏﻮﺭ ﺍﻟﺸﺎﻡ ﻗﺎﻝ : ﻭﺑﻌﻀﻲ ﻳﻘﻮﻝ : ﻛﺎﻧﻮﺍ ﺑﺎﻻﻭﻻﺝ ﻣﻦ ﻧﺎﺣﻴﺔ ﺷﻌﺐ ﺃﺳﻔﻞ ﻣﻦ ﺣﺴﻤﻰ ﻭﻛﺎﻧﻮﺍ ﺃﺻﺤﺎﺏ ﺑﺎﺩﻳﺔ ﻭﺷﺎﺀ ﻭﺍﺑﻞ { ﻣﻦ ﺑﻌﺪ ﺃﻥ ﻧﺰﻍ ﺍﻟﺸﻴﻄﺎﻥ ﺑﻴﻨﻲ ﻭﺑﻴﻦ ﺇﺧﻮﺗﻲ ﺇﻥ ﺭﺑﻲ ﻟﻄﻴﻒ ﻟﻤﺎ ﻳﺸﺎﺀ } ﺃﻱ ﺇﺫﺍ ﺃﺭﺍﺩ ﺃﻣﺮﺍ ﻗﻴﺾ ﻟﻪ ﺃﺳﺒﺎﺏﺍ ﻭﻗﺪﺭﻩ ﻭﻳﺴﺮﻩ { ﺇﻧﻪ ﻫﻮ ﺍﻟﻌﻠﻴﻢ } ﺑﻤﺼﺎﻟﺢ ﻋﺒﺎﺩﺓ { ﺍﻟﺤﻜﻴﻢ } ﻓﻲ ﺃﻗﻮﺍﻟﻪ ﻭﺃﻓﻌﺎﻟﻪ ﻭﻗﻀﺎﺀﻩ ﻭﻗﺪﺭﻩ ﻭﻣﺎ ﻳﺨﺘﺎﺭﻩ ﻭﻳﺮﻳﺪﻩ ﻗﺎﻝ ﺃﺑﻮ ﻋﺜﻤﺎﻥ ﺍﻟﻨﻬﺪﻱ ﻋﻦ ﺳﻠﻴﻤﺎﻥ : ﻛﺎﻥ ﺑﻴﻦ ﺭﻭﺃﻳﺎ ﻳﻮﺳﻒ ﻭﺗﺄﻭﻳﻠﻬﺎ ﺃﺭﺑﻌﻮﻥ ﺳﻨﺔ ﻗﺎﻝ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻠﻪ ﺑﻦ ﺷﺪﺍﺩ : ﻭﺇﻟﻴﻬﺎ ﻳﻨﺘﻬﻲ ﺃﻗﺼﻰ ﺍﻟﺮﻭﺃﻳﺎ ﺭﻭﺍﻩ ﺍﺑﻦ ﺟﺮﻳﺮ ﻭﻗﺎﻝ ﺃﻳﻀﺎ : ﺣﺪﺛﻨﺎ ﻋﻤﺮ ﺑﻦ ﻋﻠﻲ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻮﻫﺎﺏ ﺍﻟﺘﻘﻔﻲ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﻫﺸﺎﻡ ﻋﻦ ﺍﻟﺤﺴﻦ ﻗﺎﻝ : ﻛﺎﻥ ﻣﻨﺬ ﻓﺎﺭﻕ ﻳﻮﺳﻒ ﻳﻌﻘﻮﺏ ﺇﻟﻰ ﺃﻥ ﺍﻟﺘﻘﻴﺎ ﺋﻤﺎﻧﻮﻥ ﺳﻨﺔ ﻟﻢ ﻳﻔﺎﺭﻕ ﺍﻟﺤﺰﻥ ﻗﻠﺒﻪ ﻭﺩﻣﻮﻋﻪ ﺗﺠﺮﻱ ﻋﻠﻰ ﺧﺪﻳﻪ ﻭﻣﺎ ﻋﻠﻰ ﻭﺟﻪ ﺍﻟﺄﺭﺽ ﻋﺒﺪ ﺃﺣﺐ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻣﻦ ﻳﻌﻘﻮﺏ .

ﻭﻗﺎﻝ ﻫﺸﻴﻢ ﻋﻦ ﻳﻮﻧﺲ ﻋﻦ ﺍﻟﺤﺴﻦ : ﺛﻼﺕ ﻭﺋﻤﺎﻧﻮﻥ ﺳﻨﺔ ﻭﻗﺎﻝ ﻣﺒﺎﺭﻙ ﺑﻦ ﻓﻀﺎﻟﺔ ﻋﻦ ﺍﻟﺤﺴﻦ : ﺃﻟﻘﻲ ﻳﻮﺳﻒ ﻓﻲ ﺍﻟﺠﺐ ﻭﻫﻮ ﺍﺑﻦ ﺳﺒﻊ ﻋﺸﺮﺓ ﺳﻨﺔ ﻓﻐﺎﺏ ﻋﻦ ﺃﺑﻴﻪ ﺋﻤﺎﻧﻴﻦ ﺳﻨﺔ ﻭﻋﺎﺵ ﺑﻌﺪ ﺫﻟﻚ ﺛﻼﺛﺎ ﻭﻋﺸﺮﻳﻦ ﺳﻨﺔ ﻓﻤﺎﺕ ﻭﻟﻪ ﻋﺸﺮﻭﻥ ﻭﻣﺎﺋﺔ ﺳﻨﺔ ﻭﻗﺎﻝ ﻗﺘﺎﺩﺓ : ﻛﺎﻥ ﺑﻴﻨﻬﻤﺎ ﺧﻤﺲ ﻭﺛﻼﺛﻮﻥ ﺳﻨﺔ ﻭﻗﺎﻝ ﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﺇﺳﺤﺎﻕ : ﺫﻛﺮ – ﻭﺍﻟﻠﻪ ﺃﻋﻠﻢ – ﺃﻥ ﻏﻴﺒﺔ ﻳﻮﺳﻒ ﻋﻦ ﻳﻌﻘﻮﺏ ﻛﺎﻧﺖ ﺋﻤﺎﻧﻲ ﻋﺸﺮﺓ ﺳﻨﺔ ﻗﺎﻝ : ﻭﺃﻫﻞ ﺍﻟﻜﺘﺎﺏ ﻳﺰﻋﻤﻮﻥ ﺃﻧﻬﺎ ﻛﺎﻧﺖ ﺃﺭﺑﻌﻴﻦ ﺳﻨﺔ ﺃﻭ ﻧﺤﻮﻫﺎ ﻭﺃﻥ ﻳﻌﻘﻮﺏ ﻋﻠﻴﻪ ﺍﻟﺴﻼﻡ ﺑﻘﻲ ﻣﻊ ﻳﻮﺳﻒ ﺑﻌﺪ ﺃﻥ ﻗﺪﻡ ﻋﻠﻴﻪ ﻣﺼﺮ ﺳﺒﻊ ﻋﺸﺮﺓ ﺳﻨﺔ ﺗﻢ ﻗﺒﻀﻪ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﻗﺎﻝ ﺃﺑﻮ ﺇﺳﺤﺎﻕ ﺍﻟﺴﻴﻌﻲ ﻋﻦ ﺃﺑﻲ ﻋﺒﻴﺪﺓ ﻋﻦ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻠﻪ ﺑﻦ ﻣﺴﻌﻮﺩ ﻗﺎﻝ : ﺩﺧﻞ ﺑﻨﻮ ﺇﺳﺮﺍﺋﻴﻞ ﻣﺼﺮ ﻭﻫﻢ ﺛﻼﺛﺔ ﻭﺳﺘﻮﻥ ﺇﻧﺴﺎﻧﺎ ﻭﺧﺮﺟﻮﺍ ﻣﻨﻬﺎ ﻭﻫﻢ ﺳﺘﻤﺎﺋﺔ ﺃﻟﻒ ﻭﺳﺒﻌﻮﻥ ﺃﻟﻒ ﻭﻗﺎﻝ ﺃﺑﻮ ﺇﺳﺤﺎﻕ ﻋﻦ ﻣﺴﺮﻭﻕ : ﺩﺧﻠﻮﺍ ﻭﻫﻢ ﺋﻠﺘﻤﺎﺋﺔ ﻭﺗﺴﻌﻮﻥ ﺑﻴﻦ ﺭﺟﻞ ﻭﺍﻣﺮﺃﺓ ﻓﺍﻟﻠﻪ ﺃﻋﻠﻢ ﻭﻗﺎﻝ ﻣﻮﺳﻰ ﺑﻦ ﻋﺒﻴﺪﺓ ﻋﻦ ﻣﺤﻤﺪ ﺑﻦ ﻛﻌﺐ ﺍﻟﻘﺮﻃﻲ ﻋﻦ ﻋﺒﺪ ﺍﻟﻠﻪ ﺑﻦ ﺷﺪﺍﺩ : ﺍﺟﺘﻤﻊ ﺃﻝ ﻳﻌﻘﻮﺏ ﺇﻟﻰ ﻳﻮﺳﻒ ﺑﻤﺼﺮ ﻭﻫﻢ ﺳﺘﺔ ﻭﺋﻤﺎﻧﻮﻥ ﺇﻧﺴﺎﻧﺎ : ﺻﻐﻴﺮﻫﻢ ﻭﻛﺒﻴﺮﻫﻢ ﻭﺫﻛﺮﻫﻢ ﻭﺃﻧﺜﺎﻫﻢ ﻭﺧﺮﺟﻮﺍ ﻣﻨﻬﺎ ﻭﻫﻢ ﺳﺘﻤﺎﺋﺔ ﺃﻟﻒ ﻭﻧﻴﻒ

